لا تعدم الخرقاء علّة

اذا سألت الفلاّح لمَ لا تسعى في تحسين ارضك واتقان زرعك وتنويع غرسك وتكثير جناك وتحقيق فحص تربتك ومعالجة الآفات التي تتلف غلاّتك وجدته ابعد الناس عن الاقرار بالقصور فيعتذر اما بانهُ فقير لا يدرك الدرهم الاّ طراداً ولا يحصل على اللقمة الاّ جهاداً فلا سعة له لتحسين ولا وقت عندهُ للتطعيم والتنويع . واذا لم تصح عليهِ هذه العلة قال ما حاجتي الى ذلك وانا عبد للعشّار وارضي كلها لا تساوي العُشر اذ العشر في اصطلاح هذه الايام مربع العشرة فخير لي ان ارتاح من ان ياكل غيري تعب يدي ويتلذّذ بعرق جبيني . او يقول اني اذا نجوت من يد اصحاب العشر لا انجو من مخالب اهل الغدر فاذا رأى الغير مزروعاتي منبلة ومغروساتي جيدة تطمح اليها ابصارهم فان لم يستطيعوا سلبها مني يحرقوها او يقطعوها خفية عني اذ ليس من يردهم ولا من ينصفني . وقس على مثل هذه المعاذير ولكنك قط لا تسمع فلاحاً يقول اننا منهاونون . واذا سألت الصانع لمَ لا تعمل الفكرة في تحسين ادواتك واتقان مصنوعاتك ولمَ انت راضٍ برواج المصنوعات الافرنجية وكساد مصنوعاتك ولمَ ترى الصانع الافرنجي يسبقك في بلادك ولا تشير الذيل وتتغيظ على الاثر . قال اني اذا اخترعت شيئاً لم اجد من ولاة الامور من ينشطني ولا من الاغنياء من ياخذ بيدي واذا حسّنت ادواتي ومصنوعاتي لم يرضَ بها ابناء البلاد اذ لم تكن عليها السمة الافرنجية . وقط لا تسمع صناعياً يقول انني منهاون علماً وعملاً او اني لم اخترع بعدُ شيئاً عميم الفائدة لضعف رغبتي وقصر معرفتي . وكذا اذا سألت التاجر عن عدم رواج تجارته والحاكم عن عدم نفوذ حكمهِ والعالم عن قلة علمهِ فلا تجد فيهم من ينسب التقصير الى نفسهِ ولا من يقر ان العلة في شخصهِ . فلو امعن المنتقد البصير نظرهُ في العلل التي تجعل ابناء سورية قاصرين عن القيام بالاعمال العمومية لوجد اكبرها جهلنا او بالاولى تجاهلنا عن اننا منقصّرون لا لقصور في جبلتنا بل لكسلنا وفتور همتنا واعتمادنا على المعاذير عوضاً عن الاجتهاد والاسراع الى تحصيل ما يعوزنا كما يفعل غيرنا من الذين حازوا قصبات السبق . وعندنا ان سر النجاح هو في اعتماد الانسان على نفسهِ وبذل ما في طاقتهِ . فاذا رمنا الاصلاح فليبتدئ الاصلاح في همة كل فرد من افرادنا فاذا وقع خمير الاصلاح في مركز الافراد فلا بدّ ان يمتد الى محيط الهيئة الاجتماعية وكل الشواهد التاريخية تؤيّد هذه الحقيقة ولولا ضيق المقام لاجلنا النظر فيها طويلاً * هذا ومما يحسن سوقهُ في هذا المقام انهُ سيصدر عما قليل كتاب يُسمّى سر النجاح ولنا الثقة انهُ يتكفّل بنجاح مطالعهِ اذا شمر عن ساعد الجدية . فان هذا الكتاب قد حوى نوادر اكثر الذين ارتقوا من الفقر الى ذروات المجد بمجرّد سعيهم وعلو همتهم وهو اعدل شاهد على صدق المثل القائل ما حك ظهري غير ظفري . واما استيفاء وصفهِ فسيأتي في حينهِ